

## تحولات الواقع في مرآة الرواية العربية

الرواية انعكاس للعالم المتغير باستمرار واستجابة لتحولاته

عادة ما يُنظر إلى الرواية باعتبارها مرآة للحياة، ما يعني أنها الشكل الفني الأقدر على التعبير عن حياة الإنسان، بغموضها وتعقيدها وتشابك علاقاتها التي لا تنفك تأتي في صور جديدة أكثر تعقيدا؛ فباستطاعة الرواية أن تعبر بدقة عن عواطف الناس، عن أفكارهم، وعن رؤاهم للحياة بأزماتها وتساؤلاتها التي لا تفتأ تحاصرهم، وتؤرق تجاربهم على الأرض.

أحمد القرملاوي  
كاتب وأديب مصري

ثمة سبب منطقي لمواصلة الرواية تسديدها على صنوف الأدب، هو قدرتها على عكس الصورة الأديق للحياة الإنسانية، كما طبيعتها المرنة التي تسمح لها بالتحوّل والتشكّل، كلما اختلف شكل الحياة وتعكسه.

ويبدأ أغلب المؤرخين تاريخهم لفن الرواية من القرن السابع عشر، حيث شهد هذا القرن ظهور عدد من أشكال الكتابة الثرية في إيطاليا وفرنسا، قبل أن تلحق بها في القرن الثامن عشر عدة إصدارات لاقت انتشارا مذهلا في إنجلترا، بين أفراد الطبقة الوسطى التي أخذت تنمو وتكتسب قوة شرائية مع تحسّن أحوالها الاقتصادية.

الرواية العربية ليست بعيدة أبدا عن المضمار، فها هي تجدد دمائها لتتصير أقدر على التعبير عن عالم البشر

وقد سبقَت الرواية الغربية كما تفعل دائما، فعكست هذه التحولات عبر بنية روائية مُستحدثة، حيث ظهرت روايات باكلمها تعتمد في بنائها على وسائط التواصل الحديثة، مثلما فعل الكاتب النمساوي دانييل غلاتاور في روايته "نسيم الضياء"، والتي بناها بالكامل على هيئة رسائل بريد إلكتروني تروح وتجيء بين بطلَي الرواية، ليتعرّف القارئ عبر هذه الرسائل على عالم الرواية وطبائع الشخصيات، ومنها تتكشف أيضا حبكة الرواية من البداية إلى النهاية.

### الرواية ومواقع التواصل

إنها الحياة وقد انتقلت بجملتها إلى صناديق الوارد والصادر في البريد الإلكتروني، فصار حتما عليها أن تنقل المشاعر، فتحبسها تارة أو تبوح بها طبقا لمقتضى الحال، دون الحاجة إلى تواصل فعلي بين الشخصيات؛ إلا تقارب هذه الطريقة المبتكرة في البناء حياتنا المعاصرة على نحو دقيق؟ لم تتأخر الرواية العربية في اللحاق بالركب، فتوالت النصوص التي تتخذ من وسائل التواصل الاجتماعي وسيلة للتعبير الفني، وتبني عوالمها طبقا لقواعد العالم الافتراضي، الذي صار البشر يعيشون بداخله حيوات كاملة لا يفتقنها جِد ولا هزل. أصدر الأديب المصري إبراهيم عبدالمجيد رواية في العام 2009، عنوانها "في كل أسبوع يوم جمعة"، وفيها قدم رؤيته حول العالم الافتراضي، الذي أخذ يلتهم حياتنا ويسيطر عليها طبقا لمقتضياته الخاصة، فصار فضاء ليس فقط للتعرف والأخذ والرد، وللإفصاح عن تشوهات نفسية ورغبات جنسية مكبوتة.

قدم عبدالمجيد ذلك عبر قصة شابثة تُنشئ مدونة إلكترونية، تستقبل عليها الأعضاء والمشاركات خلال يوم الجمعة من كل أسبوع، بحيث تتراكم لديها المعلومات حول الأعضاء الذكور، فتشجع في اصطادهم عبر بريد إلكتروني وهمي، حتى تدفع بأحدهم ليقفل زوجته المريض بملازمة داون. عبر هذه القصة الإطارية صنع عبدالمجيد سيرة لعالمه؛ باسمائه المنخلة وأقنعت الزائفة، بهوس الهزل والجنس والملازمة وأفكاره المتراوحة في كل اتجاه؛ هكذا يزحف العالم الافتراضي فوق عالمنا، ومثلما انعكس على

لطالما تفكّر المختصون في العلوم الإنسانية في مسألة تسديد الرواية، وفي الخواص التي رجّحت كفتها أمام سائر فنون الأدب، من حيث قدرتها على تصوير حياة البشر والتعبير عنها، فذهب البعض في تفسير السيادة بطبيعة الخطاب الروائي، فالرواية تتوجّه إلى القارئ الفرد عوضا عن جمهور المتلقين، بينما تُخاطب الأشعار المحمية والملاحم الشعبية والمسرحيات الشعرية جميعا من الحضور، ما جعل الرواية تخط لنفسها مسارا مغايرا لسائر فنون الحكى، حتى الحديث منها مثل الأوبرا والمسرح والفيلم السينمائي.

ثمة خاصية أخرى تميّز الرواية، وقد تكون أكثر أهمية من مخاطبة القارئ الفرد، هي قدرتها على مُسايرة الزمن وتحولاته، واتخاذ أشكال جديدة أقدر على التعبير عن طبيعة الحياة المتغيرة باستمرار؛ فليس ثمة قالب ثابت للكتابة الروائية، ولا وجود لبناء نموذجي تتفق عليه نماذج الرواية الأكثر شهرة؛ بل إن الرواية مرنة مرونة الصلصال، مرونة الطين الذي تتشكل منه الحياة، فالرواية هي الحياة في صورتها الثرية لو سُئنا المغاربة ولأجل هذه الصفة بالتحديد، تستطيع الرواية أن تستمر ما بقي الإنسان على الأرض، متخذة أشكالا تتجدد باستمرار ويصعب توقعها قبل ظهورها.

بقليل من التأمل في ما طرأ على الكتابة الروائية من تطوّر وتجديد، يمكننا التخصّص على الحوار الدائر



الرواية تحتوي كل الوجوه (لوحة للفنان عمران يونس)



الرواية تفكك عالم مواقع التواصل (لوحة للفنان علي رضا درويش)

ومفرداته، مثل "الذكريات، الأصدقاء، المناسبات، صندوق الرسائل، الاهتمامات، الملاحظات، صورة الغلاف" في عُتونة الفصول، والتنقل بين ذكري وأخرى ترسم حياة البطل وعلاقاته واختياراته الصعبة. وصولا إلى الفصل الأخير "أدخل كلمة السر"، وفيه يستعيد البطل جزءا من سعادته ومن شعوره المفقود بالبطولة، فيما يتابع بطلا جديدة ساهم في صنعها وتعليمها فنون اللعبة، وهي تحقق انتصارا مُدويا أمام أنظار العالم. البطل هنا ليس فقط الرياضي المقعد، الذي يجتر نكرياته أمام حائط أزرق مُستجيبا لإشعارات الآخرين، بل إنه الإنسان العاجز المكبل، المحاصر بداخل رُقعته الواقعية الضيقة، والذي لا تربطه بالعالم المحيط غير رسائل إلكترونية ومفرداته، مثل "الذكريات، الأصدقاء، المناسبات، صندوق الرسائل، الاهتمامات، الملاحظات، صورة الغلاف" في عُتونة الفصول، والتنقل بين ذكري وأخرى ترسم حياة البطل وعلاقاته واختياراته الصعبة. وصولا إلى الفصل الأخير "أدخل كلمة السر"، وفيه يستعيد البطل جزءا من سعادته ومن شعوره المفقود بالبطولة، فيما يتابع بطلا جديدة ساهم في صنعها وتعليمها فنون اللعبة، وهي تحقق انتصارا مُدويا أمام أنظار العالم. البطل هنا ليس فقط الرياضي المقعد، الذي يجتر نكرياته أمام حائط أزرق مُستجيبا لإشعارات الآخرين، بل إنه الإنسان العاجز المكبل، المحاصر بداخل رُقعته الواقعية الضيقة، والذي لا تربطه بالعالم المحيط غير رسائل إلكترونية

تفاصيل الحياة والعلاقات بين الناس، انعكس أيضا على بنية الرواية وطريقة سردها ورسم شخصياتها، إذ يتم تقديم الشخصيات عبر قائمة من المعلومات التعريفية الموجزة، والمصحوبة برسمة مؤطرة كأنها صورة الشخصية.

### كلمة سر ومفتاح للحياة

أما الكاتب المصري حسن كمال، فقد دخل مضمار التجديد في بنية الرواية بتجربته الطموحة "نسيت كلمة السر"، تلك الرواية التي استعار في بنائها العديد من مكونات فيسبوك، ليصنع منها نضاً مُحكما يعكس الطبيعة المغايرة للحياة والعلاقات، إثر هيمنة العالم الافتراضي على العالم الواقعي.

خاصية الرواية أنها تتجاوز مخاطبة القارئ الفرد وتتساير الزمن وتحولاته وتتخذ أشكالاً جديدة لتتأقلم مع الواقع

تسرد الرواية المستوحاة من حياة بطل رياضي حقيقي، حكاية لاعب مصري ذائع الصيت في رياضة التايكوندو، أصيب بمرض التصلب المتعدد أثناء ممارسته الرياضة ومانفسته على بطولة العالم، لكنه استمر يُحقّق البطولات غير المسبوقة كلاعب وكمدرب أيضا لمنتخب التايكوندو، قبل أن يخوض غمار المال والأعمال والسُلطة الممتزجة بكنهية الرياضة. ورغم ذلك انتهى به الحال مُقعدا فوق كرسي متحرك، يُشاهد العالم من محبسه الصغير، لا يؤثر فيه ولا يتأثر به. استفاد كمال من مطبوعات العالم الافتراضي في بناء الرواية، فجعل من مفردات فيسبوك وأدواته التي يُتيحها للمستخدمين، جسورا يعبر بها إلى الأماكن والأحداث والمحطات الهامة في رحلة البطل؛ فمثلا، ينطلق السرد في صورة يُشاركها أحد أصدقائه على فيسبوك، تعود به إلى واقعة حدثت في كوريا الجنوبية.

يبدأ الفصل بعنوان على غرار إشعارات فيسبوك "جونج كيم أشار إليك في صورة، ومنها ينتقل إلى حدث آخر بإشعار جديد: عمر قام بمشاركة فيديو". وهكذا توظف الرواية إشعارات فيسبوك

